نصّ

مناجاة إلى المعتمد (٤٣١هـ ـ ٤٨٨هـ)

إلى ا. السّولامي، م. يعْلى.

بشير القمري

لا شيء يمنعُ من الذّهاب بعيداً في الحكمةِ والجنون. لا شيء يمنعُ من اعتقالِ الشجن. هي ذي صورتك ترتحلُ عبْر مسافات مراكش والمدن التي طارَدْتكَ صبيّاً، ثَم كهْلاً عشقْتَها. طفتَ بها. مثل كعبةٍ من رخام. مارسْتَ بها غوايتك حُرّا طليقاً، وأنت اللّحظة، في ليلها الشتوي، تُنصتُ إلى إيقاع شعرٍ تولّى، إلى مطر تدلّى، أو نساء هاربات.

هي ذي صورتك
تخترقُ مساحاتِ النّهار
ثم النّهار،
ثم اللّيلُ على اللّيل واللّيل،
وعلى انكسارات فجرٍ تجلّى.
وحين تفاجئني – أفاجئك خلسةً،
تجمعُ أوراقك،
تجمعُ ما ضاع منك في اشبيليةَ المقْفرة،
تجرّ أذيال مرارتك،
تمضي،
وحدك تمضي،
وتمضي
إلى أغْمَات مبْتعداً،
تهربُ منّي – لا أهربُ منك،
أدعوك إلى جلسةٍ في العَراءْ،
أو إلى خيْمةٍ من وَبرِ الوقتِ العنيدِ،
نأوي إليها معاً،
نشربُ نخب السلامة،
نشرب صهْباءَ الذكريات
نشرب ما تبقّى من عسلٍ مُصفّى، أوْ،
ندمن كُربتنا.
لاَ شيء يمنعُ من الذّهاب إلى مراكش الآن،
إلى متعتك اللاّهبة،
إلى عذابك في القيد
وفي القيظ
أو
في فيْءِ نُخَيلةٍ سامِقة هي عروقك تمتدّ في الأرض،
وهي

بعضُ وجهك
بعض دمك
يبدّده الصّخْب في جحيم الطرقات.
أنت في أغمات، غريباً هناك،
تنتبذُ ركن الهزيمةِ،
وأنا
اقاسمك شرارةً للحنين
أو اليقين
اقاسمك الزّمن المعتّق في كراريس العاشقات،
اكادُ أُجنّ، لا،
نكادُ نُجَنُّ،
نقلّب صفحةَ الماء،
هسيس النّار والرّمل،
علّك تأتي
أو انامك تخطُّ كتاباً لابن تاشفين،
أو اعْتماد
وتنقش الريحُ طيفك
على مقرُبةٍ من مقام الأولياءْ
ومن جامع الفناء – الكتْبية،
كل مراكش لك،
لك الآن وحدك،
لك وحدك.

مراكش الآن استوتْ جزيرةَ بيرْمودا. مثلّثاً للانخطاف، وأنت رُبّان الصّمت. عاشق الحرف. عاشقُ الكلمات تُزَفّ إلى الشّعر وإلى الغناء. إليك تحنّ قيثارة زرْياب. إليك يحنّ طوق الحمامة، تحنّ الذّخيرة بأسمائها، تحنّ الأنْدلسُ الماكرة. مثل عتاب. مثل امراةٍ غامضةٍ في المساءْ. لا شيء يمنعُ من الذّهاب – إلى الغياب وإلى لذّةٍ مستباحةٍ في دَارَةِ مراكش. في تجاويف أزقّةٍ جانبيةٍ خلَتْ من عشّاقها الآمنين – خلتك فيها سوى أن بناتِك النائحات، سوى أن نساءك اللّواتي كُنّ يرْقبن رجْعتك انكسرْنَ، عُدنَ أدراجَ الوقتِ اللّئيم، سوى أن أمّك الرّومية لم تعدْ تتقن لغة الفتنة الكبرى. هي ذي مراكش – صورتك – تمدّ إليك غربتها. تبسُط نحوك اهتزازات الأشْرعة. بين صهريج المنارةِ وغيليزَ، وها أنت يا أنت. تحضنُ رغبتك بيديك وها الشعر، ها السيف، ها العمامة، ها سلطان العشق والحكمة والجنون، استفِقْ.

لا شيء يمنعُ من الذهاب إلى الغياب إلى الذهاب
وإلى سيرتك القاتلة – أمير التّعب،
نريدك بيننا،
ندعو إليك كُتّاباً أوفياءْ
وننسى فجيعتك،
ننسى أنّك كُنْتَ الذي كُنْتَهُ معتمدا
في الشعر،
في السياسة
وفي كتاب العشق منفردا.

المغرب